37

الإنسان في شِعر
نازك الملائكة

محمد مصطفى هدارة

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

مستلة من كتاب تذكاري

نازك الملائكة
دراسات في الشعر والشاعرة

بقلم : نخبة من أساتذة الجامعات



شركة الربيعان للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٥٤٠١ الكويت ـ الصفاة

تلفون ٢٤٤٩٩٩٨ ـ برقيا : ربيعبوك

الإنسان في شعر نازك الملائكة

محمد مصطفى هدارة
كلية الآداب
جامعة الاسكندرية

— ١ —

حين وقف « وليم فوكنر William Faulkner » الروائي الأمريكي يلقي خطابا بمناسبة الاحتفال بنيله جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩ م قال : « إن شباب الكتّاب والشعراء نسوا مشكلات القلب الإنساني في صراعه مع نفسه ، وهذا الصراع وحده هو الذي يوحي بالكتابة القيّمة ، لأنه وحده الجدير بأن يكتب عنه ، والخليق بأن يكابد المرء العذاب من أجله . وإن من واجب الأديب ألا يجعل مجالا في فنه لشيء غير الحقائق العريقة ... حقائق القلب ، تلك الحقائق الكلية التي تصبح كل قصة بدونها عابرة وفاشلة إنها حقائق الحب والشرف والشفقة والكبرياء والتعاطف والتضحية ، فان لم يصل إلى شيء من ذلك فسيظل يكتب وقد حقت عليه اللعنة ، إذ لن يكتب عن الحب ، وإنما عن الشهوة ، وعن الهزائم التي لا يخسر فيها أحد شيئا ذا قيمة ، وعن انتصارات لا أمل فيها خالية من التعاطف والرحمة ، وستبقى أحزانه طافية على السطح لا تصل إلى العظام ، دون أن تترك أية ندوب . لن تصدر كتاباته عن القلب . وحتى يتعلم هذه الأشياء جميعا مرة أخرى ، فسوف يكتب عن الناس وكأنه يقف بينهم ليراقب نهاية الإنسان . أما أنا فأرفض أن تكون للإنسان نهاية ، ومن اليسير أن يقال إن الإنسان خالد لأنه سيبقى ، وإنه حينما تدق ساعة الفناء ويتلاشى صداها ... فإن صوتا واحدا سيظل باقيا ، ذلكم هو صوت الإنسان الذي لا يعتريه الفناء ، وخلوده راجع إلى أن له روحا قادرة على التعاطف والتضحية وقوة الاحتمال . وواجب الشاعر أو الكاتب أن يكتب

عن هذه الأشياء(١) » .

تذكرت كلمات « فوكنر » ــ التي تغوّرت في نفسي منذ قرأتها قبل سنوات ــ وأنا أعيش في عالم نازك الشعرى ، وهو عالم غني بالرؤى الفسيحة المدى ، وبالأحاسيس والمشاعر الإنسانية المرهفة الثّرة ، وأحاطت بي من كل ناحية نظرات زملائنا الباحثين في شعر نازك(٢) الذين عنّوا أنفسهم في تصنيفه ما بين رومانسية مفرطة ، ورومانسية رمزية ، ورومانسية رمزية سريالية ورومانسية واقعية . وقلت لنفسي بينما أحاورها : وماذا يكسب شعر الشاعر أو يخسر حين يصنفه النقاد في هذا الاتجاه الأدبي أو ذاك ، وماذا يكسب القاريء المتذوق أو يخسر حين يعلم أن شعر نازك ينتمي إلى هذه المدرسة الأدبية دون تلك . إن جمال الشعر وعظمته ليس من إبداع النقاد ، وما هم بقادرين على إخضاع تذوق القاريء وإحساسه بحيث يري ما يرون ويشعر بما يشعرون . ومهما اختلفت المذاهب الأدبية وارتبطت بفلسفات وأفكار : شرّقت أو غرّبت ، تسطّحت أو تعمقّت ، عاشت في النور ، أو تغوّرت في أسداف الرؤى الغائمة والرموز المبهمة ، فسيظل الإنسان مدار الشعر ، مثلما كان منذ أقدم العصور فالحياة التي صورها « هوميروس » في الملاحم الوثنية اليونانية تعكس لنا الوجود الإنساني كما يقول راندال بحق(٣) والإنسان هو سر أسرار

---

(١) انظر : الحرية والكرامة الإنسانية . مجموعة أشرف على ترجمتها محمد زكي عبد القادر ــ نشر مؤسسة الخانجي بالقاهرة ومكتبة اليقظة العربية بدمشق ــ ١٩٥٩ م .

(٢) بين يدي عدد كبير من هذه الدراسات ليس هنا مجال لحصرها وأذكر منها على سبيل المثال : نازك الملائكة الموجة القلقة لماجد أحمد السامرائي ــ الشعر العراقي الحديث للدكتور جلال الخياط ــ مقال في الشعر العراقي الحديث لعبد الجبار داود البصري ــ الشعر العراقي الحديث وروح العصر لجليل كمال الدين ــ شجر الغابة الحجري لطراد الكبيسي ــ الشعر العربي المعاصر ــ قضاياه وظواهره الفنية للدكتور عز الدين اسماعيل الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر للدكتور عبد القادر القط ــ الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر للدكتور مفيد قميحة .

(٣) تكوين العقل الحديث The Making of the modern mind ــ جون هرمان راندال Herman Randal نشر دار الثقافة ــ بيروت ــ ١٩٥٥ : ١٨٥ .

الكون ، وفيه تكمن المعاني المرتبطة بحقائق الوجود ، وما أصدق « آسار صاحبي » الأديب الهندي حين يقول :

إن أحدا لا يستطيع أن يعرف مدى عمق عظمة الإنسان ، وإن معرفة حقيقة الإنسان تفوق حدود طاقتنا العقلية ، فالإنسان يستطيع أن يطير إلى العلياء خارج حدود السماء ، ولكن عظمته ما زالت سرا غير معروف(٤)

والإنسان يمتد في الزمن مثلما يمتد في الفراغ إلى ما وراء حدود جسمه ، وحدوده الزمنية ليست أكثر دقة ولا ثباتا من حدوده المكانية ، فهو مرتبط بالماضي والمستقبل ، بالرغم من أن ذاته لا تمتد خارج الحاضر(٥) .

ويصدق قول « ميخائيل نعيمة » : وليس كالأدب مسرحا يظهر عليه الإنسان بكل مظاهره الروحية والجسدية ، ففي الأدب يرى نفسه ممثلا ومشاهدا في وقت واحد ، هنالك يشهد نفسه في الأقماط حتى الأكفان ، وهنالك يمثل أدواره المتلونة بلون الساعات والأيام ، وهنالك يسمع نبضات قلبه لكن في نبضات سواه ، ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره ، يشعر بأوجاع جسمه في أوجاع جسم إنسان مثله(٦) » .

فماذا يمكن أن يكون موضوعا للشعر أعظم من الإنسان : بوجوده وعدمه ، بآماله ويأسه ، بفرحه وحزنه ، بحبه وبغضه ، بعقله وشعوره ، بكبريائه وذلته ، بسموه وضعته ، بل بكل عالمه الظاهر والمجهول ، أليس هو

---

(٤) انظر : الحرية والكرامة الإنسانية : ٢٠٢ .

(٥) انظر : الإنسان ذلك المجهول ــ الكسيس كارل ــ ترجمة شفيق أسعد فريد ــ نشر مؤسسة المعارف .

(٦) انظر : الغربال : ٥٦ . دار صادر ــ بيروت ــ الطبعة السادسة .

(الجامع لجميع العوالم الإلهٰية والكونية الكلية والجزئية) ، ألا يسمّى العالم (الإنسان الكبير)(٧) .

وليس من شك في أن رؤية كل شاعر للإنسان تختلف عن غيره من الشعراء ، إذ يستحيل على أي شاعر أن يكتب عن كل جوانب الإنسان ، فهو لا يرى فيه إلا ما يستشعره في نفسه من أحاسيس وعواطف وأفكار ورؤي ، بحكم تكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي والمذهبي ، بل الفطري أيضا . وسوف أحاول في هذه الدراسة أن أستكشف الإنسان في العالم الشعري لنازك الملائكة ، وهذا الإنسان ليس بالضرورة الشاعرة نفسها ، كما أنه ليس إنسانا خاصا من خلقها لا يوجد إلا في عالمها ، كما يقرر بعض الدارسين لشعرها ، وما أصدقها حين ترد عليهم بقولها :

يقولون شاعرة في السحاب تحلّق خلف سراب النجوم
أنانيّة لا تحس الوجود وإن صرعته جبال الغموم
خيالية تمقت الكائنات وتخلق عالمها في الغيوم

أنانية وأحب البشر
خيالية وحياتي تسير
خريفية وأناجي الزهر
وعاطفتي لهب من شعور

....

أحب الحياة بقلبي العميق وأمزج واقعها بالخيال

....

وأعشق ذاتي ففي عمقها خيال وجود عميق الظلال(٨)

---

(٧) انظر : التعريفات للجرجاني : ٢٩ ، ٣٠ .

(٨) قصيدة « تهم » ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ١ : ١٧٨ ـــ ١٨١ ـــ دار العودة بيروت .

نازك والنفس الإنسانية : ــ ٢ ــ

كانت النفس موضع خلاف في الفكر الإسلامي بين المتكلمين والمتصوفة ، فالذين اعتمدوا على المذهب المادي أنكروا النفس ، ومنهم من قال إنها جسم أو عرض لجسم ، ومنهم من قال إنها مزاج وتأليف بين الطبائع . أما الذين نزعوا منزعا روحيا فقد قالوا إن النفس ليست جسما ولا عرضا لجسم ، ولا مكان لها في الحقيقة ، وليس لها طول ولا عرض ، ولا تماس شيئا ، ولا يماسها شيء ، ولا يجوز عليها الحركة والسكون ، والألوان والطعم ، ولكن يجوز عليها العلم والقدرة ، والحياة والإرادة وأنها تحرك البدن بإرادتها ولا يماسها .

أما النفس أو الروح عند المتصوفة فهى جوهر مادى من طبيعة إلهية ، وهى لذلك تنزع إلى العودة إلى مبدئها يدفعها الشوق والحب[٩] .

وقد ذكر « ابن سينا « أن كل موجود طبيعي مكون من مادة وصورة ، وبما أن الإنسان موجود طبيعي فهو إذن مكون من مادة وصورة : المادة هي البدن ، والصورة هي النفس ، ولذلك يرى أن النفس غير مادية[١٠] .

وهذا الخلاف بين الجسد والروح ، أو عالم المحسوسات وعالم المعقولات كان مبدأ أساسيا في الأفلاطونية ، وقد ثبت أن الأول دائم التبدل ، فهو متحول زائل ، الثاني ثابت أزلي خالد ، ولهذا لا تكتسب الحياة الإنسانية معنى إلا بمقدار ما يرتفع العقل فوق عالم الحس ويتصل بعالم المثل ، فالإنسان يستطيع أن يخلد نفسه بالإرتفاع إلى خير الأشياء الأزلية . وقد تأثر « أفلاطون » بنزعة الزهد الشرقية الأصل ، فحصر غاية الإنسان في محاورته الجميلة الفيدو في البحث عن الموت : موت الجسد وخلود النفس[١١] .

---

(٩) انظر في ذلك : مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للفخر الرازي ، الفصل في الملل والنحل لابن حزم .

(١٠) انظر : النجاة لابن سينا .

(١١) انظر : تكوين العقل الحديث : ٨٩ ، ٩٠ .

وواضح أن النفس عند نازك هي النفس الفلسفية التي تحرك البدن بإرادتها ، وهي في رأيها تحمل الشر دائما والبغضاء وتتأبّى على التهذيب والسمو ، تقول :

وهي النفس تحمل الشر والبغضاء ... مـــاذا يفيـدهـا التهذيـــــب(١٢)

بل إن الإنسان ذو نسب في الشر عريق ، تقول :

كيف ينجو الوجود إن كان في الإنسان عرق من الشرور عريق(١٣)

وما ذاك إلّا لأنه طبع فيه مفطور عليه :

فاحتدام الشر طبـع الآدمـــــيّ(١٤)

وما ثورتها على العالم إلا :

على عالم مغـرق فـي الشـرور(١٥)

ولا ينفع الإنسان أي دواء يبرئه وآثامه ، لأن الداء كامن في روحه ، تقول :

ليس يشفيهم من الحزن واليأس دواء فالداء في الأرواح(١٦)

وليس في الإمكان قتل الشيطان في النفس وإحياء الملاك ، تقول :

لن تقتلي الشيطان في الإنسان أو تحيي الملاك(١٧)

وتعود نازك بنسبة الشر في النفس الإنسانية إلى خطيئة آدم وحواء التي تلح عليها في أكثر من قصيدة ، وخاصة مأساة الحياة وأغنية للإنسان ، فقد نجح الشيطان في قهر الإنسان ، وغرس فيه نزعة الشر بخضوعه لإرادته ، تقول :

---

(١٢) قصيدة أغنية للإنسان (٢) : ١ : ٣٨٣ .

(١٣) نفســه .

(١٤) قصيدة في وادي العبيد ـــ ديوان عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٤٨٢ .

(١٥) قصيدة صراع ـــ ديوان شظايا ورماد ـــ ديوان نازك ٢ : ٥١ .

(١٦) قصيدة مأساة الحياة ـــ ديوان نازك ١ : ٨٧ .

(١٧) قصدية سياط وأصداء ـــ ديوان عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٥١٨ .

ليت حواء لم تذق ثمر الدوحـــــة ليت الشيطـــــــان لم يتجنــــــا
علمتنـــا ثمارهـــا فكـــــــرة الشر   فكـان الحزن العميـق العـــاصر[١٨]

فلا مناص اذن من أن تكون الحياة الإنسانية منبع الشر والشقاء :

وتـرون الحيـــاة منبـــع شـــــــر   ليس منه منجـى وليـل شقـاء[١٩]

ونازك بهذه الرؤية ترفض فكرة الاستعلاء على الشر التي حاول « جون ملتون John Milton أن يفرضها على آدم وحواء في الفردوس المفقود Paradise Lost » كما فرضها على المسيح أيضا في « الفردوس المسترد Paradise Regeined » حين أغرى الشيطان المسيح بمائدة شهية ، بعد أن امتنع المسيح عن الطعام أربعين يوما ، وهو هائم على وجهه في القفار ، ولكن المسيح لا يستجيب للشيطان ويقهره ، فهي تؤمن بالضعف الإنساني إلى أبعد مدى فتقول :

وعيون الأقدار يضحكن منــــــى   هازئات بضعفـى الآدمـــــى[٢٠]

وتتخذ من فتنة تاييس رمزا لهذا الضعف الإنساني الذي لا يستطيع أن يصمد للإغواء والشر ، تقول :

اسم تاييس لم يزل يملأ الكـون فأين الذي أضلت خطـاه[٢١]

ثم تقول للرهبان الذين يظنون في أنفسهم قهر الشر والاستعلاء على الشيطان وفتنته :

عبثا تهربون من مغريـات العيش كم في الوجـود من تاييس[٢٢]

ويبدو الإنسان في عالم نازك الشعري أكثر خضوعا لغرائزه وعواطفه ، ويحتل الحب عنده مساحة هائلة من نفسه ، ولكنه ـــ بسبب شقائه الأزلى ـــ

---

(١٨) قصيدة مأساة الحياة ـــ ديوان نازك ١ : ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(١٩) نفسه ١ : ٢٠٧ .

(٢٠) نفسه ١ : ١٥٣ .

(٢١) نفسه ١ : ٨٣ .

(٢٢) نفسه .

حب حزين منهزم ، لا يأتيه بالسعادة التي يحلم بها ، بل ربما شارك في إحساسه بالشقاء والعبودية :

ذهب الأمس بأوهام فؤادي ومحاها
فإذا قلبي عبد ولقد كان إلها(٢٣)

كما عمّق إحساسه بضياع الماضي في غير طائل إلا من العذاب والقهر :

ومرت حياتي مرت سدى — ولا شيء يطفيء نار الحنين
سدى قد عبرت صحاري الوجود — سدى قد جررت قيود السنين(٢٤)

وهو في معظم الأحيان لا يدع له أملا في السعادة التي قد يحملها الغد المنتظر ، هذا الغد الذي يأتي زاحفا عاجزا :

ورأينا الغد المنتظر — ساحبا نصفه المشلول
ساحبا نصفه المحتقر — نصفه الجامد المملول(٢٥)

وحين تغيم الرؤى أمام الإنسان في حبه لا يعرف أمسه من يومه أو غده :

هل مر بنا زمن أم خضنا اللازمنا(٢٦)

بل تتجرد كل الأشياء من مظهرها وحجمها :

وغبار السنين جر على الأشواق ستر اللالون واللاكيان(٢٧)

وبرغم الألم الذي يسببه الحب للإنسان لا يجد مجالا للفرار منه فهو يحاصره ولا أظنه إلا سعيدا بهذا الحصار :

لا مهرب من جرح قد مر على قلبي
جرح يصرخ كالجوع البائس في قلبي(٢٨)

---

(٢٣) قصيدة العودة إلى المعبد — ديوان عاشقة الليل — ديوان نازك ١ : ٦١٦ .

(٢٤) قصيدة يوتوبيا الضائعة — ديوان شظايا ورماد — ديوان نازك ٢ : ٤٥ .

(٢٥) قصيدة تواريخ قديمة وجديدة — ديوان شظايا ورماد — ديوان نازك ٢ : ٤٩ .

(٢٦) قصيدة نهاية السلم — ديوان شظايا ورماد — ديوان نازك ٢ : ٢٦٦ .

(٢٧) قصيدة حصاد المصادفات — ديوان قرارة الموجة — ديوان نازك ٢ : ٢٦٦ .

(٢٨) قصيدة الجرح الغاضب — ديوان شظايا ورماد — ديوان نازك ٢ : ٧٢ .

والإنسان في غمرة الصراع بين قلبه وعقله ، وجسده وروحه يحس الاضطراب العنيف يزلزل كيانه :

لقبوهـا الحيـاة وهـي اضطـراب أبـديّ ولهفـة لا تَقَـرّ
وامتـداد للانهايـة لا يبـدأ لا ينتهي فأيـن المفـر[٢٩]

ويحس الخواء يعتصر نفسه :

الفراغ الفـراغ يقتلني أواه لو كـان للوجود وجـود[٣٠]

ويحس الخوف يتغلغل في كيانه ، ويتمنى أن يجد من ينقذه من ظلمة الخوف المنتشرة في أعماقه :

في المعبر سعلاة ترمق طيفـي بفتـور
ووراء المفتـرق المتشعب بعض قبـور
خـذ بيدي ولنترك هـذا الأفـق المهجـور
لا تتركني روحـا صارخـة في الديجـور[٣١]

وما يطمئن إليه الإنسان قد يصبح في لحظات مصدر خوف ورهبة ، فها هي ذي عاشقة الليل يغلبها في لحظة ضعف الخوف منه :

الليـل فيـه مخاوف ووساوس لا تخمـد
أبـدا يزلزلـه صراخ غامض وتنهـد[٣٢]

ويقضي الإنسان عمره في الانتظار : انتظار كل شيء ، وانتظار اللاشيء : ... وما أطول الإنسان على الخائفين[٣٣] . ويظل مترقبا يعتصره القلق والضجر والملال :

أتصـور الضجـر المريـر
في أنفـس ملت وأتعبـها الصفيـر

---

(٢٩) قصيدة وجوه ومرايا ــ ديوان شظايا ورماد ــ ديوان نازك ٢ : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣٠) نفسه ٢ : ١٦٢ .

(٣١) قصيدة خائفة ــ ديوان قراره الموجة ــ ديوان نازك ٢ : ٤٠٠ .

(٣٢) قصيدة مدينة الحب ــ ديوان عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٥٥٩ .

(٣٣) قصيدة أول الطريق ــ ديوان قرارة الموجة ــ ديوان نازك ٢ : ٢٢٨ .

هي والحقائـــب فـــي انتظـــــار[٣٤]

وهذا الصفير ليس صفير القطار ، ولكنه ضجيج الحياة ونذير الشقاء ، وهذه الحقائب ليست أمتعة المسافرين ، بل رغبات الإنسان وآماله المتحفزة في ذاته ، حبيسة في انتظار من يفتح لها . والأمل هو ما يتعلل به الإنسان لتهدئة مخاوفه والقضاء على وساوسه ، والتغلب على إحساسه بالألم والشقاء (ما أضيق العيشر لولا فسحة الأمل) ، فإذا تحقق زال عنه كل جمال ، ولم يعد شيئا مرجّوا ، ولا بد أن يعيش الإنسان على أمل جديد :

ولو جئت يوماً ــ وما زلت أوثر ألا تجيءــ
لجف عبير الفراغ الملون في ذكرياتـــي
وقصّ جناح التخيـــل واكتأبت أغنياتـــي
وأمسكت في راحتّي حطـام رجائي البريء
وأدركـــت أنـــى أحبـــك حلمــــا
وما دمــت قــد جئت لحمـــا وعظمـــا
سأحلم بالزائر المستحيـل الـذي لم يجيء[٣٥]

ــ ٣ ــ

الإنسان والحياة :

الحياة الإنسانية سر هذا الوجود الذي يعمر الكون ، وهو يبقى ما بقيت ، ويفنى عندما تتلاشى . هذه الحياة تحسها نازك أنها مأساة ، ويترسب هذا الإحساس في كيانها نتيجة منطقية للخطيئة الأولى للإنسان ــ فغواية الشيطان لآدم وحواء ، وانهيار مقاومتها لشره ، ثم طردهما من الجنة ــ أو الخلد الذي لا يفنى ــ عقوبة لهما ، نسج ذلك كله خيوط المأساة التي يعيشها الإنسان في هذه الأرض منبوذا ، شريرا ، فانيا ، جاهلا حقائق الكون ، بعيدا عن السعادة . وبهذا الإحساس القوى بمعنى الحياة المترسب في أعماق نازك كتبت

(٣٤) قصيدة مر القطار ــ ديوان شظايا ورماد ــ ديوان نازك ٢ : ٦١ .

(٣٥) قصيدة الزائر الذي لم يجيء ــ ديوان قرارة الموجة ــ ديوان نازك ٢ : ٣٢٩ .

مطولتها مأساة الحياة وهي في ريّق العمر ما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين ، وكان دافعها إلى ذلك كما تقول :

« تشاؤمي المطلق وشعوري بأن الحياة كلها ألم وايهام وتعقيد »(٣٦) .

كذلك كانت مؤمنة بقول « شوبنهاور » : « لست أدري لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت ، لست أدري لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التي تثور حول لا شيء ، حتام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي ، متى نتذرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة »(٣٧) .

وربما خفت حدة التشاؤم عندما أعادت نازك صياغة هذه المطولة وهي في السابعة والعشرين من عمرها ، ثم وهي في الثانية والأربعين ، وجعلت عنوانها في التجربتين الأخيرتين (أغنية للإنسان) ولكن الحقيقة إن الأفكار الرئيسية بالنسبة لموقف الإنسان من الحياة ظلت كما هي دون تغيير . فالأغنية التي تنشدها نازك للإنسان ليست إلا نشيجا باكيا ، ومحاولة للتعزي عن مأساة حياته ، كما أحستها في تجربتها الأولى ، تقول نازك :

حدثي القلب أنت أيتها المأساة يا من قد سُمّيت بالحياة(٣٨)

ونراها في قمة تشاؤمها في هذه التجربة الأولى لا ترى الوجود غير ظلام لا يشرق فيه صباح ، وكأن الإنسان عندما هبط إلى الأرض في صورة آدم حقت عليه لعنة أبدية بأن يعيش على الأرض في ظلام تكتنفه الهموم والكآبة ، يقتات الحزن ويشرب الدموع :

ــ عبثا تحلمين شاعرتي ما   من صباح لليل هذا الوجود(٣٩)

---

(٣٦) ديوان نازك ١ : ٦ .

(٣٧) نفســه .

(٣٨) قصيدة مأساة الحياة ــ ديوان نازك ١ : ٢٥ .

(٣٩) نفسه ١ : ٢١ .

ــ ليس حولي إلا دياجير كون ليس يفنى بكاؤه وأساه[٤٠]
ــ حيث تبقى الغيوم في الجو رمزا لحياة سوادها ليس يفنى[٤١]
ــ ليس إلا عمر يمر حزينا يتهاوى كآبة وسكونا[٤٢]
ــ نحن نحيا في عالم كله دمع وعمر يفيض يأسا وحزنا[٤٣]
ــ قد عبرنا نهر الحياة حيارى في ظلام الفصول والسنوات
ــ وثبتنا على أسانا خريفا وربيعا فما جمال الحياة [٤٤]
ــ ليس يلقى الحياة إلاّ حزين القلب حيران في هموم الحياة[٤٥]

ونراها في (عاشقة الليل) تبث هذه الأحاسيس نفسها فتقول :

رأيت الحياة كهذا المساء
ظلام ووحشة جو كئيب
ويحلم أبناؤها بالضياء
وهم تحت ليل عميق رهيب[٤٦]

فالحياة الإنسانية كما تراها نازك شقاء دائم لامكان فيه للأمل بسبب الخطيئة الأولى للإنسان وهبوطه من جنة الخلد إلى هذه الأرض ، أو الواقع الكئيب البائس :

عالم كل من على وجهه يشقى ويقضي الأيام حزنا ويأسا[٤٧]

وتقول في (عاشقة الليل) :

---

(٤٠) نفسه ١ : ٧١ .
(٤١) نفسه ١ : ٧٤ .
(٤٢) نفسه ١ : ٨٢ .
(٤٣) نفسه ١ : ١٦١ .
(٤٤) نفسه ١ : ١٦٢ .
(٤٥) نفسه ١ : ١١٤ .
(٤٦) قصيدة خواطر مسائية ــ عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٥٦٨ .
(٤٧) قصيدة مأساة الحياة ــ ديوان نازك ١ : ٧٢ .

عبثا فالحياة سُنَّتها الحـزن وحكم الآهـات والدمع جـار[٤٨]

وتغرق في احساسها بشر الحياة وبشاعتها فتنكر وجود تعادلية فيها بين الخير والشر ، فالإنسان :

كلمـا ذاق قطـرة من نعيـــــم أعقبتـها من الأسى ألف قطره[٤٩]

بل تصل في بعض الأحيان إلى نفى الخير نفيا تاما عن حياة الإنسان ، وباعثها في ذلك كما واضح في البيت الثاني ــ طرد آدم وحواء من الجنة وهبوطهما إلى الأرض ، تقول :

هـي هذي الحياة زراعة الأشواك لا الزهر ، والدجى لا الضياء
هي نبع الآثام تستلهـم الشر وتحيـا فـي الأرض لا في السمـــاء[٥٠]

وترى أن الإنسان يجد في الشر عزاء شقائه ، فالشر تعويض عن عذاب الإنسان في الأرض :

لست ألقي حولي-سوى عالم يشقـى ويلقـى عزاءه في الشرور[٥١]

والألم عند نازك عقوبة طبيعية يتحملها الإنسان تكفيرا عن خطيئته الأولى التي أهبطته من السماء إلى الأرض ، فهو جزء لا ينفصم من نسيج الوجود الإنساني ، حتى ليمكن القول بأن الحياة هي الألم ، والألم الحياة ، تقول نازك في قصيدتها (مأساة الحياة) :

كل ما في الوجود يؤلمنـي الآن وهـذي الحياة تجرح نفسـي[٥٢]

وتقول في (أغنية للإنسان) :

---

(٤٨) قصيدة الفيضان ــ عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٦٤٨ .

(٤٩) قصيدة مأساة الحياة ــ ديوان نازك ١ : ٤٢ .

(٥٠) نفسه ١ : ٣٧ وتؤكد المعنى في البيتين بالصياغة نفسها في الأغنية الثانية للإنسان انظر ديوانها ١ : ٣٧١ .

(٥١) نفسه ١ : ٢١٣ .

(٥٢) نفسه ١ : ٣٤ .

كل ما في الوجود يجرحني الآن ولون الحياة يطعن نفسي(٥٣)

وليس هناك مفر للإنسان من آلامه فهو محاصر بها ما دام الألم يعني الحياة :

ضاق بي العالم الفسيح فيا للهول أين المفر من آلامي(٥٤)

وهي تتساءل في إنكار عن الذي ارتكبه آدم بحيث حق العذاب على البشر جميعا :

أي ذنب جناه آدم حتى نتلقى العذاب نحن جميعا(٥٥)

ولكنها موقنة باستحقاق هذا العذاب لإطاعة الإنسان الشر المتمثل في الشيطان وهبوطه من الخلد وعالم المثل والخير والفضيلة ، إلى أرض الواقع التي تتجسد فيها هزيمة الإنسان وسقوطه في حمأة الشر والرذيلة .

الإنسان والقدر : — ٤ —

إذا كان الوجود الإنساني مأساة في نظر نازك بسبب هبوط الإنسان إلى الأرض ، أو العالم السفلي المظلم الكئيب ، وإذا كان هذا الوجود عقوبة عن الخطيئة الأولى التي تمت بغواية الشيطان وزرعت الشر الدائم في الإنسان كما رأينا ، فلا مناص من الإقرار بأن الإنسان في هذا الوجود لعبة في يد القدر يتلهى بها ، وسجين في قيود الزمن ، لا أمل له في الفكاك والانطلاق من الأسر ، تقول نازك :

عبثا تسألين لن يُكشف السر ولن تنعمي بفك القيود(٥٦)

بل هذا القيد تحسه أيضا في قلبها يحول بينها وبين حرية الشعور :

هو سجن الحياة قد كبّلت أقياده السود كل قلب رهيف(٥٧)

---

(٥٣) قصيدة أغنية للإنسان (١) — ديوان نازك ١ : ٢٥٧ .

(٥٤) قصيدة مأساة الحياة — ديوان نازك ١ : ٢١٣ .

(٥٥) قصيدة أغنية للإنسان (١) ديوان نازك ١ : ٢٦٠ .

(٥٦) قصيدة مأساة الحياة — ديوان نازك ١ : ٢١ وكذلك قصيدة أغنية للإنسان ١ : ٣٥٥ .

(٥٧) نفسه ١ : ١٨٢ .

ولسنا جميعا غير أسرى أذلاء لاندري ماذا يراد بنا :

نحـن أسـرى يقودنـا القـدر الأعمـى إلـى ليـل عالـم مجهـول
ليس منـا من يستطيـع فكاكـا   ليس منا غير الأسير الذليـل(٥٨)

بل نحن لعبة بين مخالب القدر ، هذا الجبار العاتي المسيطر :

أيها الأشقيـاء نحن جميعـا   لعبـة في مخالب الأقـدار(٥٩)

وحياة الإنسان في أسرها تبدو سفينة تائهة في لجة البحر :

ألـقت بها الأقـدار في لجج المنايـا والشقـاء

....

سارت وما تدري إلى أيـن المصير ومـا الطريـق(٦٠)

وكل ما في الوجود يمكن أن يكون قيدا يغل الإنسان ، فالنفس والجسد والزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل ، كلها يمكن أن تكون قيودا تثقل الإنسان ، تقول نازك :

وكالآخريـن أعـيش أجـر قيـود المكـان
وأحمل فوق جبينـي عبء الدجـى والدخـان
لعينيك أرشف كأس الغيـوم
وأعـبر ليـلا جفتـه النجـوم
وأطـوي الزمـان
مكبّلـة بالأسى الآدمـي وقيـد الجسـد(٦١)

وتقول أيضا :

أتيناك نحن عبيد الزمان

(٥٨) نفسه ١ : ٥٧ ، والبيت الأول نفسه في قصيدة أغنية للإنسان (٢) ١ : ٣٨٨ .

(٥٩) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ـــ ديوان نازك ١ : ٣٩٤ .

(٦٠) قصيدة السفينة التائهة ـــ عاشقة الليل ـــ ديوان نازك ١ : ٦٠٢ .

(٦١) قصيدة أغنية لشمس الشتاء ـــ قرارة الموجة ـــ ديوان نازك ٢ : ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

وأسراه نحن الذين عيونهم لا تموت
أتينا نجر الهوان[٦٢]

وهي تفرق تفرقة واضحة بين حياة الحرية في جنة الخلد العلوية، وحياة العبودية والأسر في الأرض الترابية الفانية حين تقول عن آدم :

كيف ينسى الأمس الطليق ليهنا بحيـاة القيـود والأرسـان
أيـن ذاك الحس الرهيف هنا سجن بليـد مغلـف الجـدران[٦٣]

وحين ترى نازك غريقا تحس تفاهة الإنسان في أيدي القدر وشقاءه السرمدي في الأرض فتقول :

مـا الـذي تصطـاد في بحـر الزمـن
وغـدا يصطـادك الدهـر العتـى
نحن يا صيـاد أبنـاء الشجـن
حفّ محيانا الشقـاء الأبـدي[٦٤]

وما دام الإنسان مقيدا أسيرا فلا مفر إذن من أن يفرض عليه من خارج نفسه وإرادته كل ما يفرض على الأسير الذليل :

ــ ولتسر هذه الحيـاة كما ترجـو المقاديـر والأسى والظـلام
وليظل الأحياء في التيـه يشقـون وتـقسو عليهم الأيـام[٦٥]
ــ هكـذا ما يريـده القـدر المحتـوم لا ما تريـده آمالـي
سيّرتنـي الحيـاة أيـن ترى مرسى سفينـي وعنـد أي رمـال[٦٦]
ــ هكـذا شاءت المقاديـر للعـالم إثم ونقمـة وحـروب[٦٧]

(٦٢) قصيدة صلاة الأشباح ــ قرارة الموجة ــ ديوان نازك ٢ : ٣٩٥ .
(٦٣) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ــ ديوان نازك ١ : ٣٧٣ .
(٦٤) قصيدة مرثية غريق ــ عاشقة الليل ــ ديوان نازك ١ : ٥١١ .
(٦٥) قصيدة مأساة الحياة ــ ديوان نازك ١ : ٢٣٢ .
(٦٦) نفسه ١ : ٢٨ والبيتان نفسهما في أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٦٢ .
(٦٧) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٨٣ .

ــ اتركي الزورق الكليل تسيّره أكف الأقدار كيـــف تشاء(٦٨)

ــ ولتسر هذه الحياة كما ترجو المقاديـــر والأســـى والظـــلام(٦٩)

ــ سر بنا حيثما يريد لنا المجهول سر في هذا الوجـــود الحزيـــن(٧٠)

بل نراها تحس التواء السبيل أمام الإنسان وانبهام الرؤي بحيث يعسر عليه الانفلات أو الهروب ، وهي ترى في القدر الأفعوان الذي يحيط بالإنسان يعتصره ويقضى عليه ، تقول :

أين أمشى ؟ مللت الدروب
وسئمت المروج
والعدو الخفى اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي فأين الهروب ؟
....
من قيود التذكر .. لن أنشد الانفلات
من قيودي وأي انفلات
وعدوى المخيف
مقلتاه تمج الخريف
....
أين أين المفر
من عدوى العنيد
وهو مثل القدر
سرمدى خفى أبيد
سرمـــــــدي أبيـــــــد(٧١)

---

(٦٨) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٢ ونفسه في أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٥٦ .

(٦٩) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٣٢ .

(٧٠) قصيدة الفيضان ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٦٥٠ .

(٧١) قصيدة الأفعوان ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ .

وخضوع الإنسان للقدر ووقوعه في أسره يعنى شقاءه الدائم الذي سلمت به نازك نتيجة الخطيئة الأولى كما أسلفناه ، فالشقاء مكتوب على الإنسان وكذلك الشر عقوبة له ، وكأن فقدان آدم جنة الخلد لم يكن عقوبة كافية :

وليكن آدم جني حسبه فقدان فردوسه الجميل عقابا
أولم يكف أنه هبط الأرض ليسقى آلامها أكوابا
أولم يكف أنه هبط الدنيا طريدا من خلده الفينان
أولم يكف أنه عرف الشر وقد كان طاهرا في الجنان(٧٢)

ولكن كل ذلك لا يعفيه من الشقاء الذي أصبح سمة للأحياء :

لن تذوقوا شهد السعادة ما دمتم أناسيّ من تراب وماء
كتبت هذه الطبيعة للأحياء أن يكرعوا كؤوس الشقاء(٧٣)

وهي لا ترى في هذا الوجود غير الشقاء ملازما للإنسان :

عجبا أين ما يقولون ؟ مالى   لا أرى غير حيرة الأشقياء(٧٤)

فالشقاء والإنسان مرتبطان منذ النشأة حتى الفناء :

وهبطنا هذا الوجود لنشقي   منذ فجر الحياة حتى المغيب(٧٥)

وتعجب نازك للذين ينتقلون تشاؤمها وكآبتها الدائمة ، والحاحها على رسم صورة الشقاء في الكون ، وترى أن هؤلاء الناقدين يجهلون سر الوجود الإنساني في الأرض ، أو مأساة الحياة كما أسمتها من قبل :

قد وصفت الشقاء في شعري الباكي   وصورت أنفس الأشقياء
وشدوت الحياة لحنا كئيبا   ليس في ليله شعاع صياء
فأثارت كآبتي عجب الناس   وحاروا في سرها المجهول
ما دروا أنني أنوح على مأساتهم   في ظلامها المسدول(٧٦)

---

(٧٢) قصيدة أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٧٣) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٨٤ .

(٧٤) نفسه ١ : ٨٢ .

(٧٥) نفسه ١ : ٢٠٠ .

(٧٦) نفسه ١ : ١٥٦ .

إن القدر الذي هبط بالإنسان إلى الأرض كتب عليه لعنة الشقاء الأبدية ، فما ان تسترسل نازك في أحلامها الوردية حتى يبدو لها الزمن في النهر المتدفق ــ الذي يمثل الحياة بعنفوانها ــ سمكة ميتة (إنذار أسى ودليل فراق) ، وظلت هذه السمكة تكبر وتتمدد ــ وكأن الشر يبدو ميتا ولكنه لا يموت ــ حتى سدت عليها الطريق إلى الأمل :

وزعانفهـــا الســـود الشوهـــاء
سدت في وجهينا الأرجـــاء
وأراقت في الجو الســـوضاء
سحبا سوداء ولون محـــاق(٧٧)

وهي في هذا الموقف لا تمثل ذاتية خاصة ، فالشقاء سمة إنسانية مرتبطة بالوجود نفسه ، ونازك تعبر عن هذه الرابطة العضوية بين البشرية والشقاء في قصيدتها (لنكن أصدقاء) فهي تقيم ناديا للأشقاء ينضوي إليه كل بشري في أرجاء الأرض واقع تحت سلطان القدر ، تقول :

لنكن أصدقاء
في متاهات هذا الوجود الكئيب
حيث يمشي الدمار ويحيا الفناء
في زوايا الليالي البطاء
حيث صوت الضحايا الرهيب
هازئا بالرجاء
لنكن أصدقاء
فعيون القضاء
جامدات الحدق
ترمق البشر المتعبين
في دروب الأسى والأنين

---

(٧٧) قصيدة لعنة الزمن ــ قرارة الموجة ــ الديون ٢ : ٢٤٧ .

تحت سوط الزمان النزق

....

لنكن أصدقاء
نحن والحائرون
نحن والعزل المتعبون
والذين يقال لهم مجرمون
نحن والأشقياء
نحن والثملون بخمر الرجاء
والذين ينامون في القفر تحت السماء
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخون بلا جدوي
نحن والأسرى
نحن والأمم الأخرى
في بحار الثلوج
في بلاد الزنوج
في الصحاري وفي كل أرض تضم البشر
كل أرض أصاخت لآلامنا
كل أرض تلقت توابيت أحلامنا
ووعت صرخات الضجر
من ضحايا القدر

....

في بعيد الديار
ووراء البحار
في الصحاري وفي القطب ، في المدن الآمنة
في القرى الساكنة
أصدقاء بشر

أصدقـــاء ينـــادون أيـــن المفـــــر ؟(٧٨)

إن الواقع الإنساني إذن في خضوعه للقدر وارتباطه بالشقاء نتيجة الوجود (الأرضى) مفعم بالأسى والحزن والظلام ، بعيد عن الإشراق والسعادة ، ولكن الإنسان لا يستكين في قيود القدر ويحاول الصراع في سبيل الخلاص والتحرر ، تقول نازك :

ذاك شأن الإنسان يا أيها الصيـاد يا شاكيـا ظلام الرزايـــا
في صراع مع العناصر لا يهدأ حتـى يأوى لوادى المنايـا(٧٩)

بل نراها حين تتوجه إلى الرهبان المنقطعين عن المجتمع في قصيدتها (مأساة الحياة) تطلب إليهم أن يعودوا لمصارعة الزمان ، فإن الصراع جزء من قصة الوجود الإنساني في الكون :

آه عـــودوا إلى مصارعة الدهر وعيشوا كما تشـاء الحيـاة(٨٠)

ونراها في قصيدة (خمس أغان للألم) تثير فكرة صراع الانسان في سبيل الغلبة والاستعلاء على آلامه بأية وسيلة يستطيعها ، تقول :

ألـيس في إمكاننـــا أن نغـــلب الألم ؟
نرجئـــه إلى صبـــاح قادم أو أمسيـــه
نشغلـــه ، نقنعـــه بلعبـــة ، بأغنيـــه
بقصة قديمة منسيّـــة النغـــــــم ؟(٨١)

كذلك تصور صراع الانسان مع القدر والواقع المر الذي يعيش فيه فتقول :

أبـدا نحن في كفـاح مع الأقـدار والحادثـــات تُبْلى وتُفْنـــى
يتحـدّى أحلامنـا الواقـع المـــر ويـقسو زماننـا المتجنـــى(٨٢)

---

(٧٨) قصيدة شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٧٩) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٨٢ .

(٨٠) نفسه ١ : ٨٥ .

(٨١) ديوان شجرة القمر ــ الديوان ٢ : ٤٥٧ .

(٨٢) قصيدة مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٨٣ .

ويحس الإنسان في شقائه الأزلي على الأرض غربة نفسية هائلة ، وكأن هذه الأرض التي هبط إليها ليست مقرّه . وهذه الغربة في الحقيقة ليست مكانية ، بل هي — كما ذكرت — غربة نفسية إذ يحس الإنسان صدمة الواقع الذي انتهى إليه ، ويشتد إحساس الشعراء بهذه الصدمة ومحنة الاغتراب أكثر من غيرهم ، تقول نازك :

أيها الشاعر السجين كفانا غربة في حياتنا ووجوما(٨٣)

وتقول أيضا :

والفؤاد الرقيق يصدمه الإحساس بالواقع الغريب الجديد(٨٤)

وتصور ثقل الواقع على النفس الإنسانية الشاعرة فتقول في استعطاف :

أيها الواقع الثقيل حنانيك أهذى عقبى المنى والحنين ؟(٨٥)

ولكن فكرة الصراع الإنساني في شعر نازك حائلة اللون ، لا تكاد تُرى ، والإنسان في شعرها يسارع بالهروب من مواجهة الواقع إلى عالم المثال ، اليوتوبيا :

فحياة الخيال أجمل من واقع حبّ ملفّع بالرماد(٨٦)

وهي تعبر عن هذا الإنسان الهارب فتقول :

قد سئمت الواقع المر المملا
ولقد عدت خيالا مضمحلا
فاتركيني بخيالي أتسلى
آه كاد اليأس يعروني لولا

---

(٨٣) نفسه ١ : ١٢٦ .

(٨٤) قصيدة أغنية للإنسان (١) — الديوان ١ : ٢٥٢ .

(٨٥) نفسه ١ : ٢٥٨ .

(٨٦) قصيدة مأساة الحياة — الديوان ١ : ١٣٦ .

أنني لذت بأحلام السماء
وتخيّرت خيال الشعراء(٨٧)

ولا بأس عندها بالحياة إذا جمّلت واقعها المرير بالخيال :

أحب الحياة بقلبي العميق وأمزج واقعها بالخيال(٨٨)

وتتفق نازك في هذا الموقف مع بعض علماء النفس الذين يرون أننا لا نستطيع أن نعيش على الحقيقة ، وأنه لكي نتمكن من الحياة نحتاج إلى أوهام .(٨٩)

وتبني نازك للإنسان عالم الهروب في الخيال بهذه التمنيات التي تعانق الطبيعة أحيانا لطهرها و بعدها عن خبائث الإنسان ، كما نرى في قولها :

آه لو كان لي هنالك كوخ شاعري بين المروج الحزينة
في سكون القرى وو حشتها أقضي حياتي لا في ضجيج المدينة(٩٠)

وفي قولها :

آه لو عشت في الجبال البعيدات أسوق الأغنام كل صباح
وأغني الصفصاف والسرو أنغامي وأصغي إلى صفير الرياح(٩١)

بل تمنت أن ترود جبال القمر قبل أن ينجح العلماء في تحقيق هذا الحلم :

سنحلم أنا صعدنا نرود جبال القمر
ونمرح في عزلة اللانهاية واللابشر
بعيدا بعيدا إلى حيث لا تستطيع الذكر
إلينا الوصول فنحن وراء امتداد الفكر(٩٢)

---

(٨٧) قصيدة الخيال والواقع ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٩٩ .

(٨٨) قصيدة تهم ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ١٨١ .

(٨٩) عقدة أوديب في الأسطورة وعلم النفس Oedipus: Myth and complex باتريك ملاهي Patrick Mullahy ـــ نشر مكتبة المعارف ـــ بيروت . ١٩٦٢ م : ٢٣٩ .

(٩٠) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ١٥١ .

(٩١) نفسه ١ : ١٥٠ .

(٩٢) قصيدة دعوة إلى الأحلام ـــ قرارة الموجة ـــ الديوان ٢ : ٢٣٥ .

وتعانق أمنياتها الخيالية الطفولة في أحيان أخرى ، بكل براءتها وعفويتها ، كما في قولها :

وتمــر الساعات بي وأنـا أبني خفايا مدينــة الأحــلام
أي يوتوبيا فقدت وعـز الآن إدراكهـا على أيامـي
تلك يوتوبيا الطفولة لو ترجع لو لم تكن خيال منام(٩٣)

وإنسان نازك الملائكة لا يكاد ينتهي من حلمه حتى يبدأ حلما جديدا :

وأحلم أحلم لا أستفيـق إلا لأحلـم حلمـا جديـدا(٩٤)

وما ذاك إلا لرغبته المستمرة في الهروب من مواجهة الواقع المر الذي يفرض عليه الألم والأسر :

هنــالك حيث تذوب القيــود وينطلــق الفكـــــر من أسره
وحـيث تنــام عيــون الحيــاة هنــالك تمتـــد يوتوبيـــا(٩٥)

وهذا العالم المثالي الذي تتخيله نازك يكاد يكون خاليا من البشر ، أو ينبغي أن يكون كذلك ، مادام الشر والإنسان قرينين متلازمين ، تقول :

وشيدى يوتوبيا في الجبال
يوتوبيا من شجرات القمم
ومن خرير المياه
يوتوبيا من نغم
نابضة بالحياة
....
وشيدي يوتوبيا من قلوب
من كل قلب لم تطأه الحقود
ولم تدنسه أكف الركود

---

(٩٣) قصيدة أغنية للإنسان (١) ــ الديوان ٢ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٩٤) قصيدة يوتوبيا الضائعة ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٤٦ .
(٩٥) نفسه ٢ : ٣٩ .

من كل قلب شاعري عميق
لم يتمرغ بخطايا الوجود(٩٦)

ويستحيل أن يتلاقى عالم النقاء والطهر ، عالم القمم والنغم مع أحقاد الإنسان وشروره . ولا بأس في أن يهرب الإنسان من الحقيقة ، أو من الواقع ، ويعتصم بالخيال ، وما الله الذي تعشقه نازك إلا الخيال الذي تلوذ به ، والشمس رمز للحقيقة ، ولهذا تثور عليها قائلة :

يا من تمزق كل حلـــــم مشرق   للحالمين وكل طيف ساحـــر
يا من تهدّم ما يشيـدّه الدجـــى   والصمت في أعماق قلب الشاعر(٩٧)

— ٥ —

الإنسان بين الجهل والسقوط :

طبيعة خلق الإنسان من جسد وروح جزء من الثنائية التي يقوم عليها بناء الكون في جوانبه المادية والمعنوية على السواء ، والصراع الداخلي في الإنسان صراع طبيعي بين عالم المحسوسات وعالم المعقولات ، ويستحيل أن تكتسب الحياة الإنسانية معنى إلا بمقدار ما يرتفع العقل فوق عالم الحس ويتصل بعالم المثل ولكن المشكلة الكبرى أن العقل الإنساني قاصر عن إدراك كثير من حقائق الوجود ، وهذا سر من أسرار شقائه الذي صورته نازك في شعرها أصدق تصوير . وهذا التصور في العقل الإنساني يجعله مترددا بين الشك واليقين ، لا من ناحية قضية الخلق والخالق فحسب ، بل تجاه كل ما يعانيه الإنسان من حقائق الوجود . وليس (الإيمان) المطلق دواء سحريا يشفى هذه الحالة الإنسانية بحيث تقول نازك :

فلنلذ بالإيمان فهو ختام اليأس والدمع والشقاء العاتي (٩٨)

ولهذا اكتسب الإنسان هذه النزعة التي تسميها (النزعة اللّاأدرية) أو حالة

---

(٩٦) قصيدة يوتوبيا في الجبال — شظايا ورماد — الديوان ٢ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٩٧) قصيدة ثورة على الشمس — عاشقة الليل — الديوان ١ : ٤٩٠ .

(٩٨) قصيدة مأساة الحياة — الديوان ١ : ٢٣٦ .

التردد بين الجهل والمعرفة ، وبين الشك واليقين ، في محاولة الوصولة إلى كنه الأشياء .

وقد حاول الفلاسفة الأقدمون أن يبحثوا عن معاني حوادث الوجود ، فكان لا بد لهم أن يتوقفوا طويلاً عند كل أمر يتصل بالإنسان ، ليستشفوا العلاقة بين الحوادث والغاية الأساسية للوجود . فكل شيء له معنى ، ولكن ليس في ذاته ، أو من أجل ذاته ، بل من أجل الحياة الإنسانية ، ومن أجل تحقيق الغاية الإلهية التي رسمها الله القدير للكون . وقد عبر القديس أوغسطينس عن روح القرون الوسطى إزاء أسرار الكون حين كان يهتف من أعماق نفسه الباحثة عن الله ــ وهو رمز لحقيقة الكون ــ فيقول : لقد سألت الأرض فأجابتني (أنا لست هو) ، وردد كل ما فيها هذا الجواب ، وسألت البحر والأعماق والكائنات الزاحفة فأجابت (لسنا إلهك ، ابحث عنه في العلاء) وسألت الهواء المتحرك فأجاب الهواء ، ورددت جميع الكائنات التي تعيش فيه (أنا لست الله) ، ثم سألت السموات والشمس والقمر والنجوم فقالت (لسنا الله الذي تبحث عنه) ، وعندها أجبت جميع الأشياء التي أبصرتها بأم عيني : لقد قلت عن إلهي إنك لست هو ، ألا تخبرينني شيئا عنه . فهتفت كلها بصوت عال : لقد خلقنا .(٩٩)

فالإنسان إذن بعقله المحدود قاصر عن معرفة أسرار الكون ورموزه ، ولهذا يقع فريسة الجهل أو الحالة اللا أدرية . ولا شك في أن ايليا أبا ماضي قد استفاد من محاورات القديس أوغسطينس في قصيدته (الطلاسم) ، كما استفادت نازك من أبي ماضى في (مأساة الحياة) بحثا عن السعادة الإنسانية ، أو المعرفة ، أو اليقين ، أو (سر الدنيا ولغز الدهور) ، فلم تصل قط إلى الراحة والاطمئنان ، بل ظل يردد الإنسان الذي تصوره (لست أدرى) :

---

(٩٩) انظر : تكوين العقل الحديث : ٧٤ .

ـــ هكذا جئت للحياة وما أدري إلى أين سوف تمضي الحيــاة[١٠٠]
ـــ لست أدري ما غايتي في مسيري آه لو ينــجلي لعينـــيّ سرٌّ[١٠١]
ـــ أي شيء هذا الفضاء ومــا سر دجــاه هل خلفـــه من حدود[١٠٢]
ـــ نحن نحيا الحيــاة في عالم ليس يدري سره فهو غيهب مجهول[١٠٣]
ـــ عبثــا تسألين لن يكشف السر ولــن تنعمـــي بفك القيـــود[١٠٤]
ـــ لست أدري شيئا أنا اليأس يا أرض وأنت أبتسامتـــي ودموعـــي[١٠٥]
ـــ كل شيء يلوح لي عدما مرا ولغــزا مكفنــا بالشكــاة[١٠٦]
ـــ والـــذات تسأل من أنـــا

أنا مثلها حيرى أحدق في ظلام

لا شيء يمنحنـــــي السلام[١٠٧]

ـــ أبدا تنظرين للأفق المجهـــول حيرى فهل تجلّى الخفـــيّ
أبدا تسألين والقدر الساخـــر صمت مستغلـــق أبـــدي[١٠٨]
ـــ ماذا وراء الحيـــــاة ماذا أي غمـــــوض وأي سر
وفيم جئنـــا وكيـــف نمضي يا زورقي ، بل لأي بحر

....

أســـرى كما ترسم المقاديـــر لي إلى حيـــث لســـت أدري[١٠٩]

---

(١٠٠) قصيدة مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٢٨ .

(١٠١) نفسه ١ : ٢٩ وهو نفسه في أغنية للإنسان (٢) ١ : ٣٦٣ .

(١٠٢) نفسه ١ : ٦٤ .

(١٠٣) نفسه ١ : ٦٣ .

(١٠٤) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٥ .

(١٠٥) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ١٥٤ .

(١٠٦) أغنية للإنسان ـــ (١) ـــ الديوان ١ : ٢٤٦ .

(١٠٧) قصيدة أنا ـــ شظايا ورماد ـــ الديوان ٢ : ١١٧ .

(١٠٨) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٦ .

(١٠٩) قصيدة في وادي الحياة ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٥٢ .

ويقنع الإنسان في النهاية بالجهل طلبا للراحة من عناء الصراع في سبيل الوصول إلى الحقيقة :

أسفا يا فتاة لن تفهمي الأيـام فلتقنعـي بأن تجهـليها(١١٠)

وليمعن في الهرب من الواقع لائذا بالخيال والجهل :

جهل الحقائق في الحياة فلم يطق عن زيفها هربا وعاش مهوّما(١١١)

إن الشقاء الإنساني في الأرض الذي تلح نازك على تصويره له مبرراته من واقع وجود الإنسان ، من حيث سقوطه أو هبوطه إلى الأرض بعد خطيئته الأولى واتباعه الشيطان أو الشر ، ووقوعه أسيرا في يد الأقدار تحركه أنّى شاءت ، وقصور عقله عن معرفة كثير من حقائق الكون ، وعجزه عن تحقيق ما يريده لنفسه ، وهذا العجز ، أو ما يمكن أن نطلق عليه النزعة (اللّيسيّة) لتضاف إلى النزعة (اللاأدرية) تصوره نازك تصوراً قويا أخاذا في مواطن كثيرة . وقد تمثلت لي هذه النزعة (اللّيسّية) من استخدامها المتكرر لأداة النفي (ليس بصورة تدعو للتأمل عند تحليل البناء الأسلوبي لشعر نازك ، وقد استخدمتها في قصيدتها (مأساة الحياة) على سبيل المثال خمسا وسبعين مرة ، ولو أننا أضفنا إليها الأبيات التي استخدمت فيها أدوات النفي الأخرى ، والأبيات التي تصور عجز الإنسان دون استخدام أدوات نفي ، لأصبحت لدينا صورة متكاملة لعجز الإنسان وقصوره عن إدراك معظم حقائق الوجود . إن هذه النزعة (الليسية) في معظمها تسلب الحياة جمالها ، ولا تبقى منها غير صور شائهة تدل على القبح والتلاشي والانهاء ، أو تسلب الإنسان المعرفة والقدرة ، كما في قولها :

ـــ ليس منا من يستطيع فكاكا ليس منا غير الأسير الذليل(١١٢)

ـــ ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تمزق واضطراب(١١٣)

---

(١١٠) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٣٥٦ .

(١١١) قصيدة إلى عيني الحزينتين ـــ الديوان ١ : ٥٦٢ ـــ عاشقة الليل .

(١١٢) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٥٧ .

(١١٣) نفسه ١ : ٢٦ .

ــ ليس يحيا فيها سوى الآثم الجبار يا رحمتاه للضعفاء(١١٤)
ــ ليس من سحرها سوى سود أحجار تثير الدموع والأشجانا(١١٥)
ــ ليس غير الموتى عظاما وأشلاء وغير اكتآبة وصراخ(١١٦)
ــ ليس إلا دنيا من الجوع والفقر عليها يعذّب الأبرياء(١١٧)

أما الأبيات التي تنفي قدرة الإنسان وتثبت عجزه وإن لم تستخدم أداة نفي فهي كثيرة في شعر نازك ، كما في قولها :

ــ كلما حقق الزمان لقلبي حلما صورت حياتي سواه(١١٨)
ــ أريد وأجهل ماذا أريد أريد وعاطفتي لا تريد(١١٩)
ــ ترفعنا الأحلام فوق السّها وتهدم الأيام ما نأمل(١٢٠)

وهذا العجز الإنساني عن فهم حقائق الكون يتفاعل مع الشر الذي تولّد في الإنسان منذ خضع لغواية الشيطان وسقط في الإثم ، فيطبع السلوك الإنساني في أحيان كثيرة بطابع الخسة والدناءة . وربما كان لرأي « فرويد » بأن نظرية الغرائز تلعب دورا جوهريا في حياة الإنسان نصيب كبير من الصحة ــ في ضوء مفهوم الإنسان في عالم نازك الشعري . بل لقد افترض « فرويد » وجود غرض أساسي في عمليات الجهاز النفسي للإنسان ، وهو السعي وراء الإحساس باللذة . وفي سبيل السعي لإدراك هذا الإحساس يستهين الإنسان بكل ما وضعته الفلسفات من قيم لمعنى الإنسانية ، تحركه رغباته وشهوات نفسه التي تتغلب عليه ، وتقهر

(١١٤) نفسه ١ : ٣٩ .
(١١٥) نفسه ١ : ٤٣ .
(١١٦) نفسه ١ : ٤٥ .
(١١٧) نفسه ١ : ٤٧ .
(١١٨) نفسه ١ : ١٥٤ .
(١١٩) قصيدة صراع ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٥٣ .
(١٢٠) قصيدة المقبرة الغريقة ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٥٢٩ .

عقله عواطفه المشبوبة الجامحة ، وهذه هي الطبيعة المركوزة في الإنسان التي لا يستطيع تغييرها بما يخادع به من أساليب التزهد أو الترهيب ، ولهذا تقول نازك في وصف الدير ، حيث الرهبان المنقطعون للعبادة ، بعيدا عن الرغبات والشهوات الإنسانية :

إنــه الديــر فيــه ينتصر المــوت وفـي قبـوه يعيــش الآه
في خفاياه ، في ممراتـه السود الحزينـات لا يعـيش اللـه
مسكن الصمت والكآبة والجدب ومأوى الرغائب المدفونه
وصراع مع العواطف تضحى ناره أذرع الليـالي اللعينـه(١٢١)

فهذا العالم الصغير مجرد من الحياة ، لأنه مجرد من الرغبات الإنسانية الفطرية في الإنسان ، وليس هناك إنسان بلا غرائز تحركه ، وما دام ذلك ضد الطبيعة البشرية ، فليبق الدير إذن مثقلا برغائبه المشبوبة :

أثقلتـــه رغـــائب ثـرّة حريّ تبــــقت مـــن أمســـه المدفـــون
واشتيـــاق إلى الطفولـــة والحبّ إلى ضمّـــة وصدر حنـــون (١٢٢)

ويقول « هوايتهد Whitehead » في ذلك : « عادات الطبيعة المادية وقوانينها الصارمة هي التي تعد المشهد لعذاب البشر ، ونجد أن الميلاد والموت ، والحر والبرد ، والجوع والفراق والمرض ، هي التي تقيد النساء والرجال »(١٢٣) .

ويرى « سوليفان Sullivan » بعد دراسة طويلة للسلوك البشري ــ أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما ينتظمها أمران : الأول إشباع الرغبات ، والثاني السعي للحصول على الطمأنينة .(١٢٤) وفي رأيي أن السعي للحصول على

---

(١٢١) أغنية للإنسان (١) ــ الديوان ١ : ٣٤٨ .

(١٢٢) أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٤١٦ .

(١٢٣) مغامرات الأفكار Adventures of Ideas ــ الفريد نورث هوايتهد Alfred North Whitehead ــ نشر دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ــ بغداد ١٩٦٠ .

(١٢٤) Sullivan, H.S. : Conceptions of Modern Paychiatry. Psychiatry, 1940, 3: 117.

الطمأنينة إنما هو وسيلة لإشباع الرغبات أيضا ، ولكن هذا الإنسان الذي يعيش لرغباته ، والذي حوّله التقدم العلمي إلى إنسان آلي تصفه نازك بقولها :

على مكتبك البارد تنكبّ بـلا أحــلام
وتسرق روحـــــــك الأرقـــــــام(١٢٥)

وذلك لنضرب العواطف والأحاسيس السامية فيه وإغراقه في الماديات ، هذا الإنسان ترفضه نازك إيمانا منها بأن الإنسان ليس مسئولا عن وجوده الفردي فحسب ، بل هو في الحقيقة مسئول عن جميع الناس وكل البشر ، كما يقول « سارتر » . وهي بهذا المفهوم لا تبحث عن الإنسان المطلق أو المثالي الذي يسعى إليه الرومانسيون في خيالاتهم ، بل تحاول أن تتلس جذور الإنسان الممتدة في الواقع .

وحين يعرف « شلنج Schelling » الواقعية يقول بأنها هي التي تؤكد اللا أنا ، أي ما هو خارج الذات(١٢٦) . وهذا الجانب في الإنسان الذي تصوره نازك يدخل في هذا المفهوم ، فهي ترى في واقع مجتمعها الإنسان الجشع الذي يزهو بقوته وقدرته على الضعفاء ، يمتص دماءهم ليزداد مالا وهناء واطمئنانا ، ويشقى غيره في سبيل سعادته :

فكنــوز الغنّي يجمعهــا الفــلاح فــي عمــره الشقي الكسـير
ذلك الكـادح المعـــذب في القريـــة بين المحراث والناعـــور
كل صيف يسقي البساتين تحت الشمس والقصر هاجع وسنان
فهو يلقـى البـذور والمترف الهانىء يجنـي وتشهـد الأحـزان(١٢٧)

كذلك ترى الإنسان ذا النفس الوضيعة الذي لا يتورع عن إيذاء غيره من بني

---

(١٢٥) قصيدة مشغول في آذار ـــ شجرة القمر ـــ الديوان ٢ : ٤٧٠ .

(١٢٦) انظر : Lovejoy, Arthur O: The great chain of Being: 212

(١٢٧) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ١٥٩ .

البشر ، والذي يرفع شعارات العفة والعدالة ، ثم لا يترفع عن استعمار شعب بأكمله :

ونفوس وضيعة تسلب العابر حلماً أو رغبة أو قلبا
ونفوس أحط تؤمن بالعفة والعدل ثم تسرق شعبا(١٢٨)

وتعبر عن هذا المستعمر الذي يسرق حرية البشر وطعامهم بصورة تقريرية مباشرة في قولها :

ولصوص هناك كثار كلهم جشع وخداع
أقبلوا من وراء البحار يسرقون طعام الجياع(١٢٩)

ويشتد إحساسها بجشع الإنسان حين يتخلى عن الإحساس ، ويعيش على رغباته التي تتصادم مع حياة غيره من البشر في مجتمعه فتقول :

نحن العراة من الشعور ذوو الشفاه الباهته
الهاربون من الزمان إلى العدم
الجاهلون أسى الندم
نحن الذين نعيش في ترف القصور
ونظل ينقصنا الشعور(١٣٠)

ويميت الإنسان صوت الضمير ليمارس شروره في حرية ، وصوت الضمير هو الراقب الإلهي وصوت الشعور أيضا :

ذلك الراقب الإلهي في النفس لسان الهدى وصوت الشعور(١٣١)

وهي تعجب لأولئك الأشرار الذين ينجحون في خنق صوت الضمير كيف يعيشون في سلام مع أرواحهم :

كيف ينجوا الأشرار من شقوة الروح وسوط الضمير بالمرصاد(١٣٢)

---

(١٢٨) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٤٢٦ .
(١٢٩) قصيدة ثلاث أغنيات عربية ـــ شجرة القمر ـــ الديوان ٢ : ٤٩٢ .
(١٣٠) قصيدة إلى العام الجديد ـــ قرارة الموجة ـــ الديوان ٢ : ٢٥٠ .
(١٣١) أغنية للإنسان (٢) ـــ الديوان ١ : ٤٢٤ .
(١٣٢) نفسه ١ : ٤٤٥ .

ونراها تستشعر بشاعة الإنسان في صورة تلك الطفلة التي توسدت أرض الشارع في الشقاء لتنام ، إنها رمز لسقوط الإنسان :

أيـــــام طفـــــولتها مرت في الأحـــــزان
تشريـــــد ، جوع ، أعـــــوام من حرمـــــان
إحـــــدى عشرة كانت حزنـــــا لا ينطفـــــيء
والطفلـــــة جوع أزلي ، تعب ، ظمـــــأ
ولمن تشكـــــو ؟ لا أحـــــد ينصت أو يُعْنَـــــي
البشريـــــة لفـــــظ لا يسكنـــــه معنـــــى
والنـــــاس لفـــــظ لا يسكنـــــه معنـــــى
والنـــــاس قنـــــاع مصطنـــــع اللـــــون كذوب
خلـــــف وداعتـــــه اختبـــــأ الحقـــــد المشبـــــوب
والمجتمـــــع الـــــبشري صريـــــع رؤى وكـــــؤوس
والـــــرحمة تبقـــــى لفظـــــا يقـــــرأ في القامـــــوس(١٣٣)

وهذه المرأة الفقيرة البائسة التي ماتت في زقاق بغدادي كما يموت الملايين مثلها من البشر الذين نسميهم سواد الناس ، يولدون في صمت ، ويموتون في صمت ، لا تحرك حياتهم أو موتهم ضمير إنسان يحس الرحمة أو العطف :

ذهـــــبت ولم يشحب لها خد ولم ترجـــــف شفـــــاه
لم تسمـــــع الأبـــــواب قصة موتها تروى وتـــــروى
لم ترتفـــــع أستـــــار نافـــــذة تسيـــــل أسى وشجـــــوا
لتتابـــــع التابـــــوت بالتحديـــــق حتـــــى لا تراه
إلا بقيـــــة هيكـــــل في الـــــدرب ترعشه الذّكـــــر
نبـــــأ تعثر في الـــــدروب فلـــــم يجد مأوى صداه
فأوى إلى النسيـــــان في بعض الحفـــــر
يرثي كآبتـــــه القمـــــر

---

(١٣٣) قصيدة النائمة في الشارع ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٧٢ .

والليـــــــل أسلـــــــم نفسه دون اهتمام للصبـــــــاح
وأتى الضيـــاء بصوت بائعـــــة الحلـــــيب وبالصيـــــام
بمواء قط جائـــــع لم تبـــــق منـــــه سوى عظـــــام
بمشاجـــــرات البائـــــعين وبـــــالمرارة والكفـــــاح
بتـــــراشق الصبيـــــان بالأحجـــــار في عرض الطريـــــق
بمسارب الماء الملـــــوث في الأزقـــــة ، بالريـــــاح
تلهـــــو بأبـــــواب السطـــــوح بلا رفيـــــق
في شبـــــــــه نسيـــــــان عميـــــــــق(١٣٤)

وقصيدتها (الأرض المحجبة) ليست يوتوبيا الضائعة ، ولا هي أرض جبران المحجوبة ، بل هي أرض الواقع التي صورها عباقرة الكلام بأنها الجنة التي أُخرج منها الإنسان ، انتقلت إلى الأرض ، ثم لم يلبث شهداء الواقع أن رأوا فيها أبشع ما في الإنسان من أنانية واستغلال لأخية الإنسان :

صوروهـــا جنـــة سحريـــة ... من رحيـــق وورود شفقيـــه
وأراقـــوا في رباهـــا صورا ... من حنـان وتسابيـــح نقيـــه
ثم قالـــوا إن فيها بلسمـــا ... هيأتـــه الجراح البشريـــه
وأردناهـــا فلـــم نظفـــر بها ... ورجعنـا لأمانينـا الشقيـــه

....

حدثونـــا عن رخـــاء ناعـــم ... فوجدنا دربنا جوعا وعريا
وسمعنـــا عن نقـــاء وشذى ... فرأينا حولنا قبحاً وخزيـــا
ورتعنـــا في شقـــاء قاتـــل ... وكفانا بؤسنا شبعا وريـــا
وعرينـــا وكسونـــا غيرنـــا ... وكسبنا القيد والدمع السخيا

....

أيـــن تلك الأرض من حجبّهـــا ... نحن شدناها برنات الفؤوس
وأجعنـــا في الدجـــى أطفالنـــا ... لنغذيها وجُدْنـــا بالنفـــوس

---

(١٣٤) قصيدة مرثية امرأة لا قيمة لها ـــ قرارة الموجة ـــ الديوان ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

وزرعنا وحصدنا عمرنا　　وجنينا ظلمة الدهر العبوس
وسقيناأرضها من دمنا　　ومنحناها لأرباب الكؤوس[١٣٥]

وتتحول صور الآدميين في سقوطهم وبشاعة سلوكهم إلى عبيد وموتى وأسرى وتماثيل ، بل تمسخ قردة وضباعا شرسة تهز وجدان الشاعرة فتقول :

لا أريد العيش في وادي العبيد　　بين أموات وإن لم يدفنوا
جثث ترسف في أسر القيود　　وتماثيل اجتوتها الأعين
آدميون ولكن كالقرود　　وضباع شرسة لا تؤمن[١٣٦]

وتصور السلوك الإنساني في بشاعة سقوطه بطرق متعددة ، حين يتوسل إلى إدراك غاياته الدنيئة بالرياء أحيانا ، والكبرياء المصطنع أحيانا أخرى :

وتظل الحياة تخلق من وجهي قناعا صلدا يفيض رياء
جامدا باردا أصما ويخفي بعض شيء سميته كبرياء[١٣٧]

وحين ترى زيف بريق الأعين وابتسامات الشفاه ، واتخاذ الزهادة قناعا يستر الخطيئة والشر :

مَجَجْتُ الزوايا التي تلتوي
وراء النفوس
وراء بريق العيون
وأبغضت حتى السكون
وتلك المعاني التي تنطوي
عليها الكؤوس
معاني الصدى والجنون
معاني الخطايا التي تبرق
بريق النجوم
....

---

(١٣٥) قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(١٣٦) قصيدة في وادي العبيد ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

(١٣٧) قصيدة كبرياء ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٣٦ .

كرهت الجفون التي تأسر
وخلف سماء ابتساماتها
لهيب الحقود
كرهت الأكف التي تعصر
وخلف حرارة رعشاتها
جمود كذل الحياه
على جثة تحت بعض اللحود
تعيث بها دودة في برود
كرهت ارتعاش الشفاه
برجع الصلاه
ففي كل لفظ خطيئه
تجيش بها رغبات دنيئه
وعفت طموحي وبحثي الطويل
عن الخير والحب والمثل العاليه
وحقّرت سعيي إلى عالم مستحيل(١٣٨)

لقد تحولت عيون البشر في سقوطهم وتمرغهم في الشر إلى محاجر جامدة أو إلى صفائح من زجاج ، وخلف جمال لونها الذي يضاهي لون السماء تختفي أدغال كثيفة من ظلمات الشر :

ووجدت أجفانا وليس لها بصر
وعرفت أهدابا شددن إلى حجر
وخبرت أقباء ملفعة بأستار الظنون
عمياء عن غير الشرور وإن تكن تدعى عيون
وعرفت آلافا وأعينهم صفائح من زجاج
زرقاء في لون السماء وخلف زرقتها دياج(١٣٩)

---

(١٣٨) قصيدة أغنية الهاوية ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٣٩) قصيدة خرافات ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ٨٨ .

— ٦ —

الإنسان والفناء :

إن صورة الإنسان في شعر نازك الملائكة لا تكتمل دون الحديث عن تلاشي الإنسان وفنائه ، وهذا الفناء نتيجة محتومة لخطيئته الأولى التي أخرجته من جنة الخلد ، وعرضته لتجربة الحياة على الأرض ، متحملا سقطته وشرور نفسه التي أطاعت الشيطان في إغوائه له . والموت مع بشاعته ليس عقوبة ، وإن كانت نازك تقول : « الموت يلوح لي مأساة الحياة الكبرى ، وذلك هو الشعور الذي حملته من أقصى صباي إلى سن متأخرة »(١٤٠) . وهي ترى أن بداية الإنسان في الأرض مثلما كانت مأساة فإن نهايته مأساة أيضا :

ما أفظــــع المبـــــدأ والمنتهى ما أعمق الحزن الذي نحمـل(١٤١)

ولكنها تؤمن في الوقت نفسه بقول « شوبنهاور » : « وإن أعظم نعيم للناس جميعا هو الموت » . وربما وجدت في الموت أمنا لا تجده في الحياة :

عدت أخشى الحيـاة أفـرق منها وأراهـا دعابــة لا تطـــاق(١٤٢)

وليس هناك تناقض بين النظرتين ، فليكن الموت مأساة للإنسان لأنه أمر مفروض عليه ، خارج عن إرادته ، ولكنه في الوقت ذاته ، ومع ما ذهبت إليه الشاعرة من شقاء الإنسان في حياته ، سبيل للراحة من عناء الحياة ورحلتها الشاقة المريرة ، التي تزيد مرارتها على حلاوتها بما يشير إلى فقدان التعادل والتوازن بين خيرها وشرها .

ويتميز الموت على الحياة بأنه الخلد :

يـا لأسطـورة الخلـود فمـا الخلد غـير القبـور والآلام (١٤٣)

كما أنه أول خطيئة يرتكبها الإنسان في الأرض حينما قتل قابيل أخاه هابيل ،

---

(١٤٠) الديوان ١ : ١ .

(١٤١) قصيدة المقبرة الغريقة ـــ عاشقة الليل ـــ الديوان ١ : ٥٢٩ .

(١٤٢) أغنية للإنسان (١) ـــ الديوان ١ : ٢٦٠ .

(١٤٣) مأساة الحياة ـــ الديوان ١ : ٧١ .

وهذه الخطيئة :

إنها لعنة السماء على العالم مسدولة الرؤى مكفهره (١٤٤)

وسيظل شبحها مخيما على الحياة البشرية ، ونهجا تسير على خطاه ذرية آدم في خلال العصور :

— إن يكن من فقدت أول مقتول فلأيا سيقتل العشرات (١٤٥)
— إن يكن من فقدت أول مقتول على الأرض فهو ليس الأخيرا(١٤٦)
— إنها اللعنة القديمة أبقت في عروق الأبناء نبض الجريمه(١٤٧)

وتصور نازك في صدق وقع الموت العنيف على الإنسان :

صوت ماتت رن في كل مكان
هذه المطرقة الجوفاء في سمع الزمان
صوت ماتت خانق كالأفعوان
كل حرف عصب يلهث في صدرك رعبا
ورؤى مشنقة حمراء لا تملك قلبا
وتجنى مخلب مختلج ينهش نهشا
وصدى صوت جحيمي أجشا
هذه المطرقة الجوفاء ماتت(١٤٨)

والموت علامة الضعف البشري : شهد الموت بضعفي البشري(١٤٩)

ونجد ذكر الموت في عالم نازك الشعري كثير التردد ، لا يغيب حتى في عناوين قصائدها : عيون الأموات ، أنشودة الأموات ، بين فكي الموت ، المقبرة

---

(١٤٤) نفسه ١ : ٤٢ .
(١٤٥) نفسه ١ : ٤١ .
(١٤٦) أغنية للإنسان (٢) — الديوان ١ : ٣٧٥ .
(١٤٧) أغنية للإنسان (١) — الديوان ١ : ٢٧٠ .
(١٤٨) قصيدة الخيط المشدود في شجرة السرو — شظايا ورماد — الديوان ٢ : ١٩٤ .
(١٤٩) قصيدة في وادي العبيد — عاشقة الليل — الديوان ١ : ٤٨٢ .

الغريقة ، قلب ميت ، قبر يتفجر . وهي لا تفتر عنه في مراثيها لأعزاء تعرفهم ، أو لبشر مجهولين ، أو في مناسبات يسود فيها الموت : ثلاث مراث لأمي ، إلى عمتي الراحلة ، مرثية غريق ، الشهيد ، مرثية امرأة لا قيمة لها ، مرثية للإنسان ، مرثية في مقبرة ريفية ، مرثية يوم تافه ، جنازة المرح ، الكوليرا .

وتقول نازك إن للموت سجلا ممتداً عبر الزمن ، فقد نشأ مع الخلق في الأرض ، وبقي بعد أن أهلك أجيالا وأمما :

جاء من قبل أن تجيئي إلى الدنيا ملايين ثم زالوا وبادوا(١٥٠)

وهو يدعو إلى التشاؤم الكثيف ، فما جلوى الحياة إذن إذا كان مصير الإنسان محتوما إلى الفناء :

كل ما في الحياة يُنهى إلى القبر فما مجدها وما جدواها(١٥١)

وهي ترى معاني الفناء ماثلة في كل ما تراه :

ومعاني الفناء ألمحها حولي في كل ما تراه عيوني(١٥٢)

ويحس الإنسان أن عليه دورا يؤديه فإذا بلغ نهايته انتظر إسدال الستار :

ودوى الأجراس ينذرنا أنا انتهينا من دورنا المحموم(١٥٣)

والإنسان مدفوع إلى نهايته برغبة باطنية ملحة ، برغم كل ما يبدو من تشبثه أحيانا بالحياة :

إن شيئا في عمق أنفسنا يجذبنا للممات شيئا مكينا(١٥٤)

وربما دعا ذلك كله الإنسان إلى التساؤل عن المصير بعد الموت :

أبدا أسأل الليالي عن الموت وماذا ترى يكون المصير(١٥٥)

---

(١٥٠) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٣ .

(١٥١) ترجمة مرثية في مقبرة ريفية ــ عاشقة الليل ١ : ٦٧٤ .

(١٥٢) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢١١ .

(١٥٣) قصيدة أجراس سوداء ــ شظايا ورماد ــ الديوان ٢ : ١٠٧ .

(١٥٤) نفسه ٢ : ١٠٨ .

(١٥٥) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ٢٦ .

وعن علاقة المبدأ بالمنتهى ، أو الحياة بالفناء ، وهنا نجد نازك تؤمن بدورة الحياة والفناء واتصالهما الوثيق في تاريخ البشرية ، تقول :

وغدا من دمي غذاؤك يا صفصاف ياتين أي ثأر رهيب
ذاك دأب الحياة تسلب ما تعطيه بخلا ، لا كان ما تعطيه (١٥٦)

وتقول كما قال أبو العلاء المعري من قبل :

وتمشي الأحياء فوق بقايانا وداسوا عظامنا ودمانا (١٥٧)

وتقول أيضا :

وغدا تدفعني الأرض سحابا للفضاء
ويذيب المطر الدفاق دمعي ودمائي
ما أنا إلا بقايا مطر ملء السماء
ترجع الريح إلى الأرض به ذات مساء (١٥٨)

ودورة الحياة والفناء هي في رأيي الفلسفة التي تقوم عليها قصيدتها (يحكى أن حفارين) وهنا أختلف مع الصديق الدكتور عز الدين اسماعيل في تحليله لهذه القصيدة ورأيه بأن (الموت نتيجة غير منطقية بالنسبة للحياة ، لأنّ الحياة والعمل من أجل الحياة لا يمكن أن يستتبعا الموت ، وهذه هي المفارقة الحقيقية ، المفارقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود . ولو لم تكن مفارقة ، وكان الموت نتيجة طبيعية للحياة ، لما نسى الحفاران أن يحفرا لنفسيهما قبرا ، وحفرا قبور الموتى مهنتهما)(١٥٩) .

فهناك وحدة بين الموت والحياة ، فالحياة تنبثق من الموت كما يظهر النبت الحي من البذرة الهامدة ، والموت ليس له وجود بغير الحياة . واذا عدنا

---

(١٥٦) أغنية للإنسان (٢) ــ الديوان ١ : ٣٧١ .

(١٥٧) مأساة الحياة ــ الديوان ١ : ١٩١ .

(١٥٨) قصيدة على وقع المطر ــ عاشقة الليل ــ الديوان ١ : ٥٩١ .

(١٥٩) الشعر العربي المعاصر ــ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ــ نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٦٧ : ٣٦٠ ، ٣٦١ .

للقصيدة وجدنا أن بدايتها (الزمان يسير) للدلالة على هذه الدورة التي أشير إليها ، ثم نجد التلازم بين الموت والحياة في قول الحفارين :

نحن نبكي هنا
والزمان يسير
نحفر الأرض ، نبحث عما أضعنا هنا
والزمان يسير

واستمر الحفاران في عملهما الذي يجمع الموت والحياة في قرن واحد في كل الظروف ، فقد حفرا في الشتاء والخريف ، في التراب ، في الضباب ، وتمضي دورة الحياة والموت في القصيدة كلها ، حتى بعد أن ماتا ، فالشاعرة تقول :

والزمان يسير
ويجر رفاتهما في الرمال
ويرى الرجل الميت الحي يطوي الليال
شاردا مفردا
لم يعد يحتويه مكان
أو زمان
إنه قد أضاع الغدا
وتبقى له الأمس والميتان
واستمر يسير الزمان ...(١٦٠)

أما قصيدة (غسلا للعار) فنرى فيها الشاعرة تعطى شبح قابيل بعدا اجتماعيا يقوم على السخرية المرة ، لا من قضية الدفاع عن العرض في عالمنا العربي حين تقع الفتاة في الإثم ، بل من التناقض الذي يبيح للرجل مالا يبيحه للمرأة ، فهو لا يتورع عن القتل (غسلا للعار) ويفخر بذلك ، ويحتفل به بالانكباب على ملذاته وقضاء شهوته :

ويعود الجلاد الوحشى ويلقى النـاس

---

(١٦٠) قصيدة يحكى أن حفارين ــ قرارة الموجة ــ الديوان ٢ : ٣٢١ ــ ٣٢٦ .

العار ، ويمسح مديته في مزقنا العار
ورجعنا فضلاء ، بيض السمعة أحرار
يا رب الحانة أين الخمر وأين الكاس
ناد الغانية الكسلى العاطرة الأنفاس
أفدى عينيها بالقرآن وبالأقدار
املأ كاساتك يا جزار
وعلى المقتولة غسل العار (١٦١)

إن الإنسان في شعر نازك الملائكة ماثل ببدئه وانتهائه ، بخيره وشره ، بمثُله وانحطاطه ، بعقله وعاطفته وغرائزه ، بارتفاعه وسقوطه ، وهو — كما رأينا — ليس إنسانا مطلقا مجردا في كل حين ، وليس دائما إنسانا محددا ذا واقع مادي ، ليس هو الإنسان الذي تصنعه المذاهب الأدبية أو الاجتماعية المتصارعة على عينها ، ولكنه الإنسان الذي أحسته الشاعرة في نفسها بحيث لا نستطيع أن ننكره بدعوى غلبة الحزن والتشاؤم ، لأننا لا نستطيع أن ننكر أنفسنا كما نتمثل هذا الإنسان فيها ، ووظيفة الشاعر كما أدتها نازك بصدق هي التي عبر عنها « جوته » بقوله :

وعندما يخرس الإنسان في بلائه
يمنحني الله قدرة التعبير عن شقائه

(١٦١) ديوان قرارة الموجة — الديوان ٢ : ٣٥٢ .

92.716
1266

Bibliotheca Alexandrina
0272745